

الاستدلال والدليل والعلامة منطق العلاقات في الفكر العلامي

أ.إباون سعيد

جامعة تيزي وزو

يعد الاستدلال من أشد المواضيع تشعبا وأكثرها استعصاء على الضبط، وهو، زيادة على ذلك، من أكثر مواضيع بحث الفكر البشري التي مافتتت تثير اهتمام فلاسفته وعلمائه بدءا من الفكر اليوناني وصولا إلى أحدث النظريات المهتمة بسبل تطوير آليات اشتغال مختلف الصناعات المعتمدة على البرمجة والذكاء الاصطناعي. وهو مرتبط أشد الارتباط بأعقد المواضيع الفلسفية؛ ذلك لأن الحديث عن الاستدلال معناه الحديث عن العقل والإدراك وعملية اكتساب المعرفة والطرق المؤدية إليها، فهو في عمقه، كما أكد الجابري، فعل عقلي¹ وحضوره دائم في جميع الأنشطة العقلية والإدراكية، إذ "لا يخلو فعل إدراكي من استدلال مهما يكن المجال الإدراكي قريبا من النشاط الحسي، ومهما يكن مألوفا، وحتى عندما تبدو بعض الأحداث توجد بالرغم من عقلنا، وأن لا دور للذات في تشكيلها، فإن النشاط العقلي حاضر في تشكيلها"². ثم إن موضوع الاستدلال سجد له، إذا ما عدنا إلى الفكر العربي القديم، حضورا دائما ومكثفا في المؤلفات الفقهية والبلاغية والمنطقية، سواء أكان حضوره ذاك حضورا علنيا وصريحا أو حضورا مقنعا ومضمرا؛ ذلك لأن الاستدلال، كما يقول عنه شكري المبخوت، عبارة تتصلّ بجدول لغوي ثري من قبيل الدليل والدلالة واللزم والاستنتاج والاستنباط والاقتضاء والبرهان والقياس والحجة³.

1. الاستدلال في سياق الانتقال:

أول الأمور المسترعية للانتباه كون الاستدلال من الألفاظ التي يوحي ظاهرها بتعدد معانيها؛ فهي تستعمل في سياقات للدلالة على الانتقال؛ انتقال من أشياء ظاهرة ومعلومة إلى أخرى مجهولة أو خفية. وتستعمل في سياقات أخرى للدلالة على عمليات البرهنة والتدليل. فإذا ما حاولنا، بناء على ما سبق، إيجاد مقابل للاستدلال في اللغة الفرنسية مثلاً، سيتبين لنا ما يلي:

- يترجم الاستدلال تارة بـ *inférence* الذي يعني، في أبسط الأحوال، "استخلاص شيء من شيء آخر عبر قانون واع أو غير واع"⁴؛ أو هو كما جاء في *Le petit Larousse illustré* "عملية ذهنية ننتقل عبرها من حقيقة إلى أخرى"⁵.
- يترجم الاستدلال، تارة أخرى، بعبارات من مثل "*recherche de la preuve*"⁶ الذي يعني في العربية الحجج والتدليل والبرهنة.

- يترجم الفعل *argumenter* بمقابلات عربية من مثل: برهن، أقام الحجة، دُلّ، استنتج واستدل⁷.

- يترجم الفعل *inférer* بمقابلات عربية من مثل: استدَلَّ واستنتج⁸ وكما هو ملاحظ فإنَّ الفعل "استدل" حاضر في المقابلات العربية لكل من الفعلين: *argumenter* و *inférer*.

إضافة إلى تعريفي دومينيك مانجونو Dominique Maigneueau ومعجم لاروس المؤيدين لفكرة كون الاستدلال، بصفة عامة، انتقال الذهن من أشياء حاضرة إلى أخرى غائبة، ثمة تعريفات عديدة، رغم اختلاف طرائق تعبيرها عن معنى الاستدلال، تنحو نفس المنحى السابق، إذ يقول شكري المبخوت: "الاستدلال باب واسع يكاد يرادف الانتقال من قول إلى قول على أساس وجود تلازم بينهما بصورة من الصور"⁹.

لئن كان التعريف السابق موحياً باقتصار الاستدلال على الانتقال بين الأقوال عبر قاعدة، ومن ثمَّ اقتصره على اللسان الطبيعي فقط، فإن المبخوت يستعين في مواضع أخرى، بأفكار باحثين آخرين وُسِّع فيها مجال ممارسة الاستدلال، كما

أفصح فيها عن الشروط الواجب توفّرها لقيامه. إذ لن تقوم للاستدلال قائمة إلا بوجود عناصر ننتقل منها وعنصر نصل إليه وإجراء صريح أو غير صريح يمكن من الانتقال¹⁰. ويبدو من الواضح هنا أنه زيادة على بقاء الانتقال باعتباره جوهرًا للعملية الاستدلالية، فإنّ عدم تخصيص عناصر الانطلاق والوصول وعدم وصف طبيعتها يجعل منها عناصر عامة لا تنطبق على أقوال اللّغة الطبيعية فقط. ومن أجل توضيح شيء من طبيعة تلك العناصر وكذا الإجراءات التي تمكّن من الانتقال نستعين بكلام سمير عبده حينما يقول: "عملية الاستدلال لا تتمّ إلا بوجود الشروط الآتية:

- 1 - موضوعات فيزيقية لها خصائص مميّزة تعتبر كمنبهات خارجية.
 - 2 - ناحية فيزيولوجية تتصل عادة بالحواس وأطراف الأعصاب التي تنقل الإحساسات إلى الدّماغ.
 - 3 - ناحية سيكولوجية تتصل بترجمة تلك الإحساسات وإعطائها المعاني اللّازمة التي تتلاءم مع الشيء المدرك في مجال استدلال معين¹¹.
- من بين الأمور التي يكشف عنها نص سمير عبده ارتكاز العملية الاستدلالية وتأسّسها على توفّر الموضوعات الفيزيقية التي يتّسع معناها ليشمل كافة الأشياء التي تلتقطها حواس الإنسان الخمس، ليتمّ بعد عملية الالتقاط ترجمة تلك الموضوعات وإعطائها قيمة أو معنى بواسطة إعمال الفكر بشكل من الأشكال.
- إذا ما استرجعنا كل ما قيل بخصوص الاستدلال لحد الآن، فإن أهم الأمور المسترعية للانتباه، هو التداخل الكبير الموجود بين الاستدلال والعلامة إن على مستوى المكوّنات أو على مستوى طريقة الاشتغال. ويبدو أن سبب التداخل راجع أساسًا إلى قوة التّلازم الموجود بينهما، تلازم يمكن الواحد منهما من أن يكون لازمًا وملزومًا باعتبار صاحبه. فالاستدلال، كما يقول صاحب تاج العروس، لن يكون إلا بالعلامات¹² التي لا تكون بدورها كذلك إلا بالاستدلال.

2. الدليل:

ما يلفت الانتباه ويستدعي التوقف حقا هو إدراك الفكر التراثي العربي وانتباه الكثير من أعلامه إلى أوامر الرّبط القوية التي تجعل من الاستدلال والعلامة شيئين لا فكاك بينهما. يقول التهانوي معرّفا الاستدلال: "هو دليل إذ لا معنى للدليل إلا ما يلزم من العلم به العلم بالمدلول"¹³. أو هو: "النظر في الدليل سواء كان استدلالا من العلة على المعلول أو من المعلول على العلة"¹⁴. أو كما عرفه في موضع آخر بقوله: "الاستدلال هو انتقال الذهن من الأثر إلى المؤثر وقيل بالعكس، وقيل مطلقا"¹⁵.

زيادة على تأييد التعريفين الأوّلين للفكرة التي نحن بصدددها، من أن الاستدلال، كما هو مشار إليه في التعريف الثالث، هو انتقال الذهن من أشياء حاضرة إلى أخرى غائبة، فإن التهانوي وهو بصدد تعريف الاستدلال الذي هو فعل ونشاط عقليان، راح يعرف عوضا عنه الدليل الذي يتسع مفهومه ليشمل جميع الأشياء الدالة على المعاني. فالدليل هو "أشياء العالم بوصفها علامات أو أمارات شاهدة على مدلولات غائبة"¹⁶. أو هو، كما يقول عنه الأمدي: "يعمّ [...] كل ما يقال له دليل، كان مفيدا للقطع أو الظن؛ وسواء كان عقليا أو حسيا، أو شرعيا أو عرفيا، أو قولا أو سكوتا، أو فعلا أو ترك فعل إلى غير ذلك"¹⁷.

ويبدو، بناء على ما سبق، أن مفهوم الدليل، الذي يعرفه التهانوي بنفس تعريف الدلالة*، يقابل مفهوم العلامة التي هي "شيء ما يحل محل شيء ما بالنسبة لشخص ما من زاوية ما"¹⁸. ويقول نصر حامد أبو زيد مشيرا إلى هذا التقابل: "يقابل مفهوم العلامة في التراث مفهوم الدلالة، ولعل في نظرة المسلمين للعالم بوصفه دلالة على وجود الخالق -وهي نظرة يؤيدها القرآن- ما يؤكد تفسيرنا لمفهوم الدلالة في الفكر الإسلامي بما يوازي العلامة في المفهوم السيميوطيقي"¹⁹.

لا يعني تعريف التهانوي للدليل المعوض لتعريف الاستدلال المطلوب في سياق بحثنا هذا، أنّ صاحب الكشّاف لا يميّز بين الاستدلال والدليل، بل أراد، فيما يبدو،

بتعريفه الأولين، أن يشير إلى جملة عناصر بالغة الدقة يمكن التعبير عنها وفق الشكل الآتي:

- إذا انتفى الدليل انتفى معه الاستدلال، وإذا انتفى الاستدلال انتفى معه الدليل.

- إذا وُجد الدليل وُجد معه الاستدلال، وإذا وُجد الاستدلال وُجد معه الدليل.
- تحيين الاستدلال وتحققه متوقف بالكامل على الدليل، وتكوّن الدليل متوقف بالكامل على الاستدلال.

- إذا بدأت عملية الاستدلال بدأ معها، في اللحظة نفسها، تكوّن الدليل، وإذا انتهت عملية الاستدلال انتهى معها، في اللحظة نفسها، تكوّن الدليل.
- إذا بدأ تكوّن الدليل بدأ معه، في اللحظة نفسها، عملية الاستدلال، وإذا انتهى تكوّن الدليل انتهى معه، في اللحظة نفسها، عملية الاستدلال.

ولعلّ أوجز التعابير التي تصف الأمور السابقة وأحسنها، التي تتمّ عن فهم عميق قول الجاحظ: "ومحال كون الفرع مع عدم الأصل، وكون الاستدلال مع عدم الدليل، والعقل مضمّن بالدليل، والدليل مضمن بالعقل، ولا بدّ لكل واحد منهما من صاحب، وليس لإبطال أحدهما وجه مع إيجاب الآخر"²⁰.

يبدو من الواضح الآن أنّ قوة التلازم الموجودة بين الاستدلال والدليل تبلغ حدّ الالتباس؛ إذ إن تعريف أحدهما يؤدي حتما إلى تعريف الآخر. فهما، إضافة إلى إمكانية عدهما وجهين لعملة واحدة ويتأثران ببعضهما البعض تأثرا كلياً ومتبادلاً، فإنهما جدّ متشابهين في الوظيفة والمكونات وطريقة الاشتغال، فالدليل كما هو حال الاستدلال ثلاثي المكونات؛ مكونات يمكن استخراجها من تعريفات التهانوي وفق ما هو مبين في الجدول الآتي:

عناصر الوصول	الواسطة	عناصر الانطلاق	
المدلول	العلم	الدليل	التعريف الأول
العلة أو المعلول	النظر	العلة أو المعلول	التعريف الثاني
الأثر أو المؤثر	الذهن	الأثر أو المؤثر	التعريف الثالث

أهم الأمور التي يكشف عنها الجدول، زيادة على إبراز المكونات الثلاثة للدليل واستجلائها، كشفه أن الواسطة التي تمكّن من الانتقال ما هي سوى الفكر المعبر عنه في التعريف الأول بمادته التي هي العلم، وفي التعريف الثاني بواحدة من وظائفه وهي النظر، وفي التعريف الثالث بواحد من مرادفاته وهو الذهن.

3. الاستدلال في سياق البرهنة:

بعدما تسنى لنا التأكّد من أن الاستدلال يستعمل في سياقات للدلالة على معنى الانتقال، ننتقل الآن إلى تعريفات أخرى تؤيد الوجه الثاني لاستعمال الاستدلال المتمثل في إحالته على معاني البرهنة والتدليل.

إلى جانب ما أوردناه سابقا بهذا الخصوص، فإن أكثر التعريفات المتداولة، خاصة في المؤلفات القديمة، هي كما ما يقول عنها شكري المبخوت: "الاستدلال على ما تفصح عنه الصيغة في العربية طلب الدليل"²¹. وعلى هذا الأساس فإن الاستدلال عند ابن حزم الأندلسي مثلا هو: "طلب الدليل من قبل معارف العقل ونتأجه"²². أو هو بصيغة أخرى "تقرير الدليل لإثبات المدلول"²³. أو كما ورد في كتاب الكليات: "الاستدلال لغة طلب الدليل ويطلق في العرف على إقامة الدليل مطلقا"²⁴.

ثمة سؤال يفرض نفسه بعد إيراد جملة التعريفات السابقة هو: على ما نقيم

الدليل ولما نطلبه أو نطالب به؟

لعل الإجابة عن السؤال كامنة، أساسا، في المضمرات التي تتطوي عليها التعريفات السابقة؛ إذ إن طلب الدليل وتقديره أو إقامته متوقفة، بالكامل وفي جميع

الأحوال، على وجود مسبق أو لاحق لما يمكن التّعبير عنه عموماً: بالنتيجة؛ نتيجة يمكن الخلوص إليها إمّا من دون الإفصاح عن السبيل والوسائط (عناصر الانطلاق، المقدمات) التي أدّت إليها ومن ثمّ إضمارها، أو عن طريق ترتيب تلك السبيل والوسائط ترتيباً منطقياً متصفاً بالدقة والصرامة اللّتين لا تتركان مجالاً للشغرات والتناقضات. فترتيب السبيل والوسائط، ومن ثمّ الإفصاح عنها بعد أو قبل النتيجة هو بعينه طلب الدليل أو إقامته. فالاستدلال، في الأخير، كما هو وارد في معجم لغة الفقهاء هو "إقامة الدليل على صحّة الدعوى"²⁵؛ دون أن تفوت في هذا الموضوع مسألة التّبيه إلى أنّ الدّعوى التي نحن بصدددها في هذا المقام أشمل وأوسع من الدّعوى الواردة في التعريف، فهي تشمل كل عناصر الوصول الخاصة بمختلف أنواع الاستدلالات، سواء أكانت تلك العناصر دعاوى أو معاني أو نتائج أو سلوكات معينة...إلخ.

هكذا يتبين إذن، بعد عرض مجموع التعريفات السّابقة التي كشفت عن كيفية استعمال الاستدلال في سياق الانتقال، ثم في سياق البرهنة والتّدليل، أن دلالاته على الانتقال دلالة عامة وثابتة وحضورها دائم في جميع العمليات الاستدلالية. أمّا دلالاته على البرهنة والتّدليل فهي دلالة إضافية زائدة عن الأولى يمكن التّعبير عنها بصيغة: تبرير الانتقال والبرهنة عليه. فكلّ استدلال انتقال، لكن ليس كل استدلال برهنة وتديلاً، بحيث ستتسع دائرة الانتقال لتشمل جميع العمليات الاستدلالية من دونما استثناء، في حين تتقلص دائرة البرهنة والتّدليل لتقتصر فقط على عمليات استدلالية خاصة، تعبّر عنها بوضوح العلوم بأنواعها؛ كون العلوم تتوفّر، في الغالب الأعمّ، على نسب مقبولة من الدّقة والموضوعية في ضبط طرق الانتقال من عناصر الانطلاق إلى عناصر الوصول؛ أي أنّها تسعى دوماً لأن تكون نتائجها قطعية أو متّصفة على الأقلّ بدرجات عالية من الصّحة.

إنّ النّتيجة الحتمية التي تقود إليها الأفكار السابقة، هي أن القيام بالعمليات الاستدلالية لا يتوقف على بعض الأفعال الإدراكية دون سواها، بل يتعداها إلى جميع الأفعال التواصلية سواء أكان ذلك التّواصل إنسانياً، أو بين الإنسان وأشياء العالم

المحيطة به، أو حتى، إذا ما ذهبنا أبعد من ذلك، بين مكونات المادة الحيّة أو الصناعية. فالاستدلال "يشمل الصّور الاستدلالية الصناعية [...] بقدر ما يشمل أبسط ضروب الانتقال من حمرة الوجه إلى الخجل ومن تلبّد السّماء بالغيوم إلى هطول الأمطار ومن حكّ الأكفّ إلى وصول أموال ومن وقوع زقّ الطيور على ثياب الشخص إلى التّفاؤل باقتناء ملابس جديدة"²⁶. وعلى هذا المنوال يمكن أن نوسّع من مجال العمليات الاستدلالية إلى ما لانهاية، لتشمل كل الآثار الناتجة عن تأويل مختلف العلامات، بدءاً من أبسط الانتقالات إلى أعقدها. وعليه فإنه لا اختلاف مثلاً، إذا ما نظرنا إلى الاستدلال من زاوية عامة، بين لبس المعطف بعد الإحساس بالبرد، وغلق النافذة بعد قول زميل "الجو بارد اليوم"، وحضور حفل صديق بعد قراءة الكلمات الموجودة على بطاقة الدعوة التي أرسلها إلينا، وبين القول بأن معاني الكرم والضيافة هي المعاني المقصودة من قول قائل "فلان كثير رماذ القدر". ويرجع سبب القول بعدم اختلاف الأمثلة السابقة، إلى أن عناصر الانطلاق والوصول والواسطة التي تمكّن من الانتقال، والتي تعدّ مكونات قاعدية لأيّ نظام استدلال، متحققة في الأمثلة جميعها، بما فيها أمثلة شكري المبخوت. وعليه فإذا ما أردنا استخراج تلك المكونات في أيّ مثال من الأمثلة السابقة، وليكن ذلك في مثال الفعل الكلامي، فستكون النتيجة وفق الشكل كالتالي:

عناصر الانطلاق	الواسطة	عناصر الوصول
قول الزميل "الجو بارد اليوم"	ظروف المقام + الخلفية المعرفية للمخاطب	غلق النافذة

4. العلامة عند شارل ساندرس بورس وعلاقتها بالاستدلال:

يبدو أنّ التّسوية بين الاستدلال والعلامة باعتبارها نتيجة عامة وصلنا إليها من خلال العرض السابق، قد ظهرت بصفة أكثر جلاءً، وفي مستويات عديدة، عند قطب من أقطاب السيميائيات العامة وهو شارل ساندرس بورس الذي نقتصر على بعض كتاباته وما قيل بخصوصها لتأكيد النتيجة السابقة وإثباتها. فأما ما تعلق بالتّسوية

في جانبها الأكثر عمومية فبالإمكان إظهارها بعد الكشف عن التداخل الكبير الحاصل بين الاستدلال وعلم العلامة إن على مستوى الحدود أو على مستوى المواضيع، وذلك باعتبار علاقتهما بالمنطق. وبخصوص الحدود بالذات سنسعى لإبراز التداخل الحاصل على مستواها بإيراد مقدمتين والنتيجة المترتبة عنهما.

تكمن المقدمة الأولى في كون أحد مفاهيم المنطق قد ضبط "لا على أساس التحري في ما هو حاصل فعلا، لكن على أساس إنجاز العملية الاستدلالية التي بها ينتقل الفكر من المعلوم إلى المجهول"²⁷. وبهذا سيكون عمل رجل المنطق متمثلا، بصفة أساسية، في دراسة العمليات الاستدلالية الفعلية التي نقوم بها في حياتنا اليومية بغرض الكشف عن صورة أو بنية يجري الاستدلال وفقها، ثم التحقق من سلامة العملية الاستدلالية²⁸. وبناء على ما سبق يمكن القول، بصيغة مختصرة للغاية، إن "المنطق هو علم الاستدلال"²⁹.

أما المقدمة الثانية فتكمن في إجماع أغلب دارسي فلسفة بورس على أن علم العلامات عنده يلتبس التباسا دائما بعلم المنطق، إن لم يكن هو العلم ذاته في نهاية الأمر. إذ يقول جيرار دولودال Gérard Deledalle بهذا الصدد: "إن السيميوطيقا، التي هي المنطق مأخوذ في معناه العام، هي نظرية العلامات"³⁰. وفي الإطار نفسه دائما تقول كلودين تييرسولين Claudine Tiercelin: "سيفوتنا معنى المشروع السيميائي البورسي إن نحن نسينا أن هذا المشروع لن يأخذ معناه إلا بين أحضان المنطق والأنطولوجيا، وفعلا فإن بورس قد فهم دائما وأبدا العلامات في علاقتها بالمنطق قبل أي شيء آخر"³¹. لتضيف في موضع آخر قائلة: "قد أضحى المنطق، ومن ثم قسمه الأكثر صورية وشكلية، يعرف باعتباره سيميائيات، لكن هذا المنطق لا يحوي كل السيميائيات كون الأمر يتعلق فقط بتلك السيميائيات التي تطلق عليها تسميات: السيميائيات الشكلية، العامة، [...] أو حتى العلم النظري للعلامات عامة"³². ويبدو، في الأخير، أن المصدر الجامع للأقوال السابقة هي كتابات بورس نفسه، حيث يقول في أحدها: "سيكون الشخص الذي يبحث في إحالات الرموز على مواضيعها مجبرا على القيام

بدراسات جديدة تخص جميع فروع النظرية العامة للعلامات. ولهذا السبب سأعطي، بكل طواعية، لكتاب المنطق الذي أنا بصدد كتابته عنوان: المنطق باعتباره سيميائيات³³. ليضيف في موضع آخر، بتعبير أكثر وضوحاً: "ليس المنطق في مفهومه العام، كما أعتقد أنني قد أوضحت، إلا اسماً آخر للسيميوطيقا"³⁴.

إن النتيجة التي ستترتب عن التسليم بأن المنطق هو علم الاستدلال، وأن السيميائيات اسم آخر للمنطق، هي التسليم بداية بأن علم الاستدلال والسيميائيات بمثابة أسماء أخرى للمنطق، والتسليم، في آخر الأمر، بأن السيميائيات بمثابة اسم آخر لعلم الاستدلال.

يستدعي، بالضرورة، تداخلاً آخر في المواضيع بمنطقاتها وأهدافها. فأما ما تعلق بإظهار تداخل الأهداف، الذي سيصاحبه فيما يبدو إظهار تداخل المنطقات، فإنها لا تختلف، في جوهرها، عن أهداف المنطق الأساسية المتمثلة، حسب بورس، في: "تحليل الفكر والتعرف على ما يكونه"³⁵. وعليه فإن التسليم بما قاله بورس أنفاً إلى جانب التسليم بأن الفكر غير قابل للتجربة والملاحظة المباشرتين سيقود، في مقامنا هذا، إلى طرح السؤال الآتي: ما هي المادة التي يشتغل عليها المنطق في سعيه الدعوى لكشف خبايا الفكر وأسراره؟

يكمن القسم الأول من الإجابة في بعض ما ذكر آنفاً من أن الخطوة الأولى والأساسية التي لا بدّ لرجل المنطق من اجتيازها، هي إحصاء العمليات الاستدلالية الفعلية التي نقوم بها في حياتنا اليومية ثم دراستها قصد الكشف عن بنيتها لا تعدّ، في الأخير، سوى محاولة لشكلنة الفكر وترجمته واستجلاء لطرق اشتغاله استناداً على تجلياته الخارجية. إضافة إلى ذلك، يمكن إيراد نصوص أخرى تؤكد بدورها على أن المادة الأساسية التي يشتغل عليها المنطق إنما هي العمليات الاستدلالية الفعلية، ولعلّ أوكد تلك النصوص نص البعزاتي حينما قال: "إنه مهما حاول المنطق الصوري أن يعبر عن دقائق الاستدلال الفعلي فإنه لن يفلح إلا جزئياً. ولا يجب أن يؤخذ

هذا العجز كذريعة لكي لا يحاول المنطق التّقرب من الاستدلال الفعلي من أجل فهمه أحسن مادام أنّه زعم دائما أنّه يترجم هذا الاستدلال³⁶.

إذا انتقلنا الآن إلى علم العلامة بمنطقاتها وأهدافها، كما أرادها بورس أن تكون، فأول الأمور الجديرة بالانتباه هي التعريفات الكثيرة المؤكدة على أن البحث السيميائي لا يختلف في عمقه عن البحث في الفكر والإدراك وطرق اكتساب المعرفة. ومرد ذلك كون "السيميائيات عند بورس غير قابلة لأن تفصل عن الفكر. إنها تقدم الشروط المنطقية للوجود، وهذا يعني أنها ليست شبكة يتم تطبيقها على الواقع، إنها خلاف ذلك تحل سيرورة اكتساب المعرفة"³⁷. وعليه يمكن القول، باطمئنان، "إن الحديث عن سيميائيات بورس هو حديث عن تصوّره لعملية الإدراك"³⁸. أو إن السيميائيات "سيرورة لتحويل العالم من الحالة السديمية والأحادية وانعدام الشكل إلى ما يحدد الأشكال المختلفة للإدراك"³⁹. وعليه يمكن القول بكل بساطة إن "السيميوطيقا شكل للفكر"⁴⁰.

لا يمكن البتة عد الأقوال السابقة المحددة للأهداف العامة لسيميائيات بورس، أقوال مجانية أو أحكام قيمة، كونها ستجد، في النهاية، سندها الواضح والقوي في كتابات بورس نفسه، فحديثه في تلك الكتابات سواء أكان حول العلامة أو حول المقولات الفانيروسكوبية (catégories phanérosopiques) التي أسس عليها نظريته في العلامة بأبعادها الثلاثة، أو حول السيميائيات بشكل عام سيقود، في النهاية، إلى استخلاص الأهداف السابقة. فيقول مثلا بخصوص علاقة الفكر بالعلامات وبالتالي إظهار منطلق علم العلامات وأهدافه: "إذا كان الفكر غير متجل في الخارج عبر العلامات، لا نستطيع قول أي شيء أو معرفته. إن الفكر الوحيد الذي نعرفه لا يمكن أن يكون، إذن، سوى فكر بالعلامات"⁴¹. ليضيف في موضع آخر: "إذا رغبنا في تحليل الظواهر الذهنية أو العقلية، فإن أنجع السبل للقيام بذلك هي دراستها لا من الداخل بل من الخارج؛ أي دراستها في العلامات وعبر النشاط السيميائي"⁴². إنه بالإمكان، إضافة إلى ذلك كله، استخلاص هدف بورس من بحثه السيميائي حتى

من تعريفه للفانيروسكوبية التي يقول بخصوصها: "الفانيروسكوبية (phanéroscope) وصف للفانيرون (phanéron) الذي أعني به المجموع أو الكل المشترك الموجود في العقل، مهما كانت صفة ذلك الكل ومهما كان معناه، ومن دون أي اعتبار أيضا لمطابقتها أو عدم مطابقتها لشيء واقعي"⁴³.

نصل الآن، بعد استجلاء التداخل الكبير الموجود بين علم الاستدلال والعلامة، إن في المواضيع أو المنطلقات أو الأهداف، إلى محاولة تقريب صورة التداخل تلك بالتحقق من مدى صحة التسوية بين مفهوميهما. وتجدر الإشارة، بداية، إلى أن تلك التسوية قد كانت محل إشارات وضعها العديد من الدارسين، إذ يقول، مثلا، شكري المبخوت: "مفهوم الاستدلال، شأنه شأن العلامة والتمثيل"⁴⁴. أما أمبرتو إيكو فقد تعدى مجرد الإشارة إلى محاولة الكشف عن "الطبيعة الاستدلالية التي تميز العلامة"⁴⁵ بتخصيصه في كتابه الموسوم "السيميايات وفلسفة اللغة" فصلا كاملا للموضوع بعنوان "العلامة والاستدلال"^{*}، حيث يقول في أحد التصوص مستنتجا: "الفكرة الأصلية للعلامة لم تتأسس على التساوي وعلى التعلّاق القار والمحدد من قبل السّنن وعلى التكافؤ بين العبارة والمضمون، بل إنها تتأسس على الاستدلال"⁴⁶.

إن الاستدلال، فضلا عما سبق، عبارة، كما هو الحال في العلامة، عن نظام ثلاثي؛ نظام لا يختلف في عمقه عن نظام العلامة بمكوّناتها وطريقة اشتغالها. فإذا كان الاستدلال مشروطا في تحقيقه، كما أسلفنا ذكره، بتوفر ثلاثة عناصر: موضوعات فيزيقية، ناحية فيزيولوجية، وأخرى سيكولوجية، فإن تكوين العلامة مشروط، كذلك، بوجود العناصر السّابقة نفسها؛ لأن العلامة هي في المقام الأول "نمط خاص للتّركيب يتمّ انطلاقا منه تنظيم الواقع وفق وجود أقسام من التّمثيلات العلامية التي تغطي مناطق من المعيش والمحسوس والمتخيل"⁴⁷. إضافة إلى ذلك فإن تعريف بورس للعلامة مستوحى من "الترابط الثلاثي بين عناصر الإدراك هي نفسها عناصر الاستدلال". ف "الفكر" (الذي هو من نظام الثانية) [الناحية السيكولوجية]

يستحوذ على الموجودات (التي هي من نظام الثنائية) [الموضوعات الفيزيقية] عبر
الممكنات (التي هي من نظام الأولانية) [الناحية الفيزيولوجية]^{48*}.

واضح أن التسوية التي تمّ الكشف عنها في الفقرة السابقة متعلقة فقط بالأبعاد
العامة لكل من الاستدلال والعلامة؛ أي أنها تسوية بين مفهوم الاستدلال باعتباره
انتقالاً من عناصر انطلاق إلى عناصر وصول عبر واسطة، ومفهوم العلامة باعتبارها
إحالة ممثل على موضوع عبر مؤول. لكن إذا ما استرجعنا الآن ما قيل بخصوص
الاستدلال في أنه لا يستعمل للدلالة على الانتقال فقط، بل يستعمل أيضاً للدلالة على
البرهنة والتدليل، فإن السؤال الذي لا مناص من طرحه في مقامنا هذا هو الآتي: هل
يمكن إيجاد دلالة البرهنة والتدليل في العلامة وفق تحليل بورس لها؟

يمكن القول، بداية، إن تحليلات بورس للعلامة، لا تكشف فحسب عن دلالة
البرهنة والتدليل بشكل عام، إنها تحاول، أكثر من ذلك كله، وضع قائمة كلية
ونهائية لجميع أنواع الاستدلالات، سواء أكانت تلك الاستدلالات بسيطة أو ظنية أو
قطعية أو منطقية أو من طبيعة استقرائية أو استنباطية أو تمثيلية، "فكل تقدم في
حركة السيميوزيس، وكل سيرورة انتقال سواء أكان ذلك داخل العلامة الواحدة أو
بين مختلف العلامات عبارة عن استدلال"⁴⁹.

لا يعني ما لمنا إليه سابقا تتبع جميع أنواع الاستدلال التي تكشف عنها
تقسيمات بورس للعلامة الكثيرة والمتشعبة والتوسع فيها، ذلك لأن مسألة كهذه
ستدخلنا في قضايا منطقية بحتة ومعقدة، بعيدة كل البعد عن دائرة اختصاصنا.
وعليه سنكتفي، قصد إتمام الحديث عن الاستدلال في علاقته بالعلامة، بالإشارة إلى
أن دلالة البرهنة والتدليل المستخلصة من مفهوم الاستدلال، تتجلى بشكل مفصل في
البعد الثالث للعلامة؛ أي في بعد المؤول. فالمؤول إذا ما نظرنا إليه، بداية، باعتبار
تفرّعه إلى أولانية (الخبر) وثانوية (التصديق) وثالثية (الحجّة)، يمكن عدّه بمثابة
وصف لثلاث عمليات استدلالية مختلفة من حيث قوة تبرير ربط ممثل بموضوعه؛
بحيث ستدرج هذه العمليات من "البرهنة في حالتها الدنيا"⁵⁰، التي تمثلها أولانية

الثالثية (الخبر)، إلى أن تصل قوة البرهنة إلى ذروتها في ثالثية الثانية (الحجة) التي تتطابق، في عمقها، مع مفهوم البرهان والقانون⁵¹.

أما إذا نظرنا إلى المؤول باعتبار تفرعه إلى أنواع*، فإن أهم ما تفصح عنه تلك الأنواع، إضافة إلى إمكانية عدّها هي أيضا كـ "تراتبات الاستدلال ودرجاته"⁵²، هي طبائع الاستدلال وأنواعه. إذ يمكن استكشاف مثلا الطبيعة الاستقرائية للاستدلال في المؤول الدينامي⁵³؛ كون هذا المؤول يشير "إلى كل المعلومات السابقة [...] ويستدعي ما يسميه بورس بالتجربة المحيطة"⁵⁴، وسوف لن يأخذ صفة الدينامية، أي طبيعته الاستقرائية إلا بـ "استحضار المخزون الثقائي الذي يحيط بالعلامة من كل الجوانب"⁵⁵. أما إذا حاولنا الآن استكشاف الطبيعة الاستبطائية للاستدلال فسنجدها بارزة مثلا في المؤول النهائي الثالث، كونه لا يحتاج إلى أي مؤول كي يكون، ولا يتطلب كذلك أية تجربة، فهو، بتعبير جيرار دولودال، استبطائي بشكل بات⁵⁶.

نخلص بعد هذا العرض الذي تدرجنا فيه من محاولة البحث عن مفهوم الاستدلال، إلى استجلاء علاقته بالدليل كمصطلح تراثي، ثم علاقته بالعلامة كمصطلح حدائي، إلى النتائج الآتية:

إن الاستدلال والدليل والعلامة، بصفة عامة، مصطلحات مختلفة تشير، في عمقها، إلى مفهوم واحد. حيث تبين أن أهم الأمور البارزة التي تلتقي فيها هذه المصطلحات إنما هو تعبيرها عن النظام والطريقة التي يشتغل وفقها الفكر. فالبحث في دقائق هذه المصطلحات وتفصيلها، إنما هو، في الحقيقة، محاولة لترجمة الفكر وفهمه عبر دراسة مظهراته الخارجية. وعليه يمكن، من ناحية، فهم سبب اشتراك الاستدلال والدليل والعلامة في النواة الدلالية التي تحيل خصوصا على نظام مشكل من مكونات ثلاثة. ويرجع سبب الاشتراك، فيما يبدو، إلى كون الاتصال الكثيف والدائم للفكر بالعالم المحيط به، وما ينجر عن ذلك الاتصال من نتائج وآثار وسلوكات واعتقادات وتحصيل معارف، هو المدار العام الذي يعبر عنه أي نظام من الأنظمة السابقة. ويمكن، من ناحية، أخرى فهم سبب القول بأن الاستدلال

والسيمائيات عبارة عن منطلق أو اسمين آخرين له، لاشتراك الجميع في موضوع مركزي متمثل، بشكل أساسي، في السعي الدؤوب للكشف عن كنه العقل وخبائاه.

إذا أردنا الآن استخراج الفكرة الجوهرية الجامعة بين التعريفات السابقة الخاصة بالاستدلال. أي بتعبير آخر، إذا ما حاولنا صياغة تعريف بسيط وعام له، فإن أهم الأمور التي يجب الإشارة إليها، بل التركيز عليها، قبل تلك الصياغة، هو أن تعريف الاستدلال، بصفة عامة، لا يختلف عن تعريف العلامة. وعليه يمكن القول إن أهم ما تحيل عليه كلمة "استدلال" إنما هو إحالتها بالخصوص على: نظام مشكّل من ثلاثة مكوّنات: أوّل وثان وثالث. فأما عن طبيعة هذه المكوّنات فبعضها عائد إلى ما هو فيزيولوجي ذهني والبعض الآخر إلى ما هو عياني*. سينشأ عن احتكاك المكون العياني والمكون الفيزيولوجي والتأثير المتبادل بينهما حركية ودينامية، أو بتعبير دقيق، سيرورة منتجة تؤدي إلى خلق مكوّن ثالث (مكون ذهني) يكتمل به النظام الاستدلالي. فإن بقي هذا النظام في ذلك المستوى (السيرورة المنتجة) فهو إذن انتقال من شيء إلى آخر عبر واسطة، وإن ارتقى إلى محاولة تعليل الانتقال فهو انتقال أو سيرورة منتجة مسبوغة بالبرهنة والتدليل.

الهوامش:

- 1 - محمد عابد الجابري، بنية العقل العربي: دراسة تحليلية نقدية لنظم المعرفة في الثقافة العربية، ط5، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 1997، ص 246.
- 2 - بناصر البعزاتي، الاستدلال والبناء: بحث في خصائص العقلية العلمية، ط1، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، 1999، ص 237.
- 3 - ينظر: شكري المبخوت، الاستدلال البلاغي، ط1، دار المعرفة للنشر وكلية الآداب والفنون والإنسانيات، منوبة (تونس)، 2006، ص 18.
- 4- Dominique Maingueneau, Les termes clés de l'analyse du discours, édition Seuil, Paris, 1996, p49.
- 5- Le petit Larousse illustré, Larousse, paris, 2001, p 544 .
- 6 -محمد علي التهانوي، موسوعة كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم، تقديم وإشراف ومراجعة: رفيق العجم، تحقيق: علي دحروج وآخرون، ط1، ج1، مكتبة لبنان ناشرون، لبنان، 1996، ص 152.
- 7 - سهيل ادريس، المنهل: قاموس فرنسي عربي، ط35، دار الآداب للنشر والتوزيع، بيروت، 2006، ص29.
- 8 - م. ن، ص656.
- 9 - شكري المبخوت، الاستدلال البلاغي، ص 162.
- 10- Voir: Jayez. J, L'inférence en langue naturelle, Hermes, Paris, 1988, p 15.
- نقلا عن: شكري المبخوت، م.س، ص 19.
- 11- سمير عبده، التحليل النفسي لقوة الاستدلال، ط1، دار علاء الدين، دمشق، 1994، ص ص 5-6.

- 12 - ينظر: محمد بن محمد بن عبد الرزاق الحسيني أبو الفيض، تاج العروس من جواهر القاموس، تحقيق: مجموعة من المحققين، دار الهداية، دمن، دت، ج1، ص 24.
- 13 - التهانوي، موسوعة كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم، ج1، ص 152.
- 14 - م.ن، ص ن.
- 15 - م.ن، ص ن.
- 16 - محمد عابد الجابري، بنية العقل العربي، ص 38.
- 17 - سيف الدين أبي الحسن علي بن أبي علي بن محمد الأمدي، الإحكام في أصول الأحكام، راجعها ودققها مجموعة من العلماء، دار الكتب العلمية، بيروت، 1983، ج3، ص34.
- * - يقول التهانوي معرفًا للدلالة: "هي على ما اصطلاح عليه أهل الميزان والأصول والعربية والمناظرة أن يكون الشيء بحاله يلزم من العلم به العلم بشيء آخر [...] والشيء الأول يسمى دالا والشيء الآخر يسمى مدلولًا. والمطلوب بالشيئين ما يعمّ اللفظ وغيره". التهانوي، م.س، ص 787.
- 18 - جيرار دولودال، بالتعاون مع جوويل ريطوري، السيميائيات أو نظرية العلامات: مدخل إلى سيميوطيقا شارل س.بيرس، ترجمة وتقديم: عبد الرحمن بوعلي، ط1، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، 2000، ص 67.
- 19 - نصر حامد أبو زيد، "العلامات في التراث: دراسة استكشافية"، أنظمة العلامات في اللغة والأدب والثقافة: مدخل إلى السيميوطيقا، إشراف: سيزا قاسم ونصر حامد أبو زيد، دار الياس العصرية، القاهرة، 1986، ص 78.
- 20 - الجاحظ، الرسائل، الرسائل الكلامية - كشاف آثار الجاحظ، قدم لها وبيها وشرحها: علي أبو ملح، ط3، دار ومكتبة الهلال، بيروت، 1995، ص 128 - 129.
- 21 - شكري المبخوت، الاستدلال البلاغي، ص 18.
- 22 - أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم، الإحكام في أصول الأحكام، تقديم: إحسان عباس، تحقيق: أحمد محمد شاكر، منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت، دت، ج1، ص 39.

- 23 - أبو الفيض، تاج العروس من جواهر القاموس، ج1، ص 24. ينظر أيضا: أبو البقاء أيوب بن موسى الحسيني الكفوي، كتاب الكليات، تحقيق: عدنان درويش -محمد المصري، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1419هـ -1998م. ص 114. ينظر أيضا: علي بن محمد بن علي الجرجاني، كتاب التعريفات، تحقيق: إبراهيم الأبياري، ط1، دار الكتاب العربي، بيروت، 1405 هـ، ص: 34 - 87.
- 24 - الكفوي، م.س، ج1، ص159. ينظر أيضا: التهانوي، موسوعة كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم، ص 151.
- 25 - محمد رواس قلعه جي، حامد صادق قنبيبي، معجم لغة الفقهاء عربي - انكليزي مع كشاف إنكليزي-عربي، ط2، دار النفائس للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، 1988، ص 60.
- 26- شكري المبخوت، الاستدلال البلاغي، ص 19.
- 27 - عبد السلام المسدي، اللسانيات وأسسها المعرفية، الدار التونسية للنشر، تونس؛ المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1986، ص 49.
- 28 - ينظر: أحمد أنور أبو النور، المنطق الطبيعي: دراسة في نظرية الاستتباط الأساسية، ط1، دار الثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة، 1993، ص 75.
- 29 - طه عبد الرحمن، اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، ط1، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء -بيروت، 1998، ص 89 .
- 30 - جيرار دولودال بالتعاون مع جوويل ريطوري، السيميائيات أو نظرية العلامات: مدخل إلى سيميوطيقا شارل س.بيرس، ص 13.
- 31- Claudine Tiercelin, C.S.Peirce et le pragmatisme, Ire édition, Presses Universitaires de France (P.U.F), Paris, 1993, p 46.
- 32 - Ibid, p 45.
- 33- Charles S. Peirce, écrits sur le signe, rassemblés, traduits et commentés par Gérard Deledalle, édition du Seuil, Paris, 1978, p 50.

- 34 - تشالز ساندرس بيرس، "تصنيف العلامات"، ترجمة: فريال جبوري غزول، أنظمة العلامات في اللغة والأدب والثقافة: مدخل إلى السيميوطيقا، ص 137.
- 35 - Claudine Tiercelin, C.S.Peirce et le pragmatisme, p 78.
- 36 - ناصر البعزاتي، الاستدلال والبناء: بحث في خصائص العقلية العلمية، ص 79.
- 37 - Jean Fisette, Introduction à la sémiotique de C.S.Peirce, Collection " études et documents", Montréal, Québec, 1990, p 5.
- 38 - سعيد بن كراد، السيميائيات والتأويل: مدخل لسيميائيات ش.س.بورس، ط1، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء - لبنان، 2005، ص72.
- 39 - سانكدو كيم، "حول مشروع تاريخ السيميوطيقا. أسئلة وقضايا إبستمولوجية"، ترجمة محسن أعمار، مجلة علامات، العدد 21، <http://saidbengrad.free>، نوفمبر 2003
- 40 - Ibid.
- 41 - Claudine Tiercelin, C.S.Peirce et le pragmatisme, p 55.
- 42 - Ibid, p 55.
- 43 - Charles S. Peirce, écrits sur le signe, p 67.
- 44 - شكري المبخوت، الاستدلال البلاغي، ص 17.
- 45 - أمبرتو إيكو، السيميائيات وفلسفة اللغة، ترجمة: أحمد الصمعي، ط1، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، 2005، ص 205.
- * - يمتد الفصل من الصفحة 43 إلى الصفحة 114. الكتاب المترجم.
- 46 - أمبرتو إيكو، السيميائيات وفلسفة اللغة، ص 204.
- 47 - سعيد بن كراد، "المؤول والعلامة والتأويل"، مجلة علامات، العدد <http://saidbengrad.free>، 9.
- 48 - Ibid.

- * - لا تنتمي العبارات الموجودة بين المعقوفتين إلى النص المستشهد به. إنها إضافة من عندنا بهدف المقارنة بين أبعاد العلامة وعناصر الاستدلال.
- 49 - Jean Fiset, Introduction à la sémiotique de C.S.Peirce, p 68.
- 50 - سعيد بن كراد، السيميائيات والتأويل: مدخل لسيميائيات ش.س.بورس، ص 123.
- 51 - ينظر: جيرار دولودال بالتعاون مع جوويل ريطوري، السيميائيات أو نظرية العلامات، ص 79.
- * - يتفرع المؤول إلى المؤول المباشر والمؤول الدينامي والمؤول النهائي. يتفرع المؤول الدينامي إلى مؤول دينامي أول وثان. ويتفرع المؤول النهائي إلى مؤول نهائي أول وثان وثالث. ينظر: م.س، ص ص 97 - 98.
- 52 - محمد مفتاح، "مفهوم الحقيقة عند شارل.س.بورس"، مجلة فكر ونقد، العدد 2، سبتمبر 1997. <http://www.aljabriabed.net> /fikrwanakd/n02_03miftah.htm
- 53 - ينظر: سعيد بن كراد، السيميائيات والتأويل: مدخل لسيميائيات ش.س.بورس، ص 99.
- 54 - من، ص ن .
- 55 - من، ص 96.
- 56 - ينظر: جيرار دولودال بالتعاون مع جوويل ريطوري، السيميائيات أو نظرية العلامات، ص 98.
- * - لا يعني القول بأن من مكونات الاستدلال ما هو ذهني وما هو عياني إغفال العمليات الاستدلالية العقلية التي تكون فيها المكونات جميعها ذهنية. وهو ما يسمى عادة بالتأمل الفكري المجرد.